اسهامات نسائية موثقة في تاريخ العراق العثماني

أ.م.د. فـردوس عبد الرحمـن كريم(*)

المقدمة:

ليـس مـن قبيـل المصادفة أن يجـد الباحث والمؤرخ عـن أي حالة أو شريحـة اجتماعية في تاريـخ العراق العثماني وما جاوره من اقاليـم صعوبة بالغة في العثور على المعلومة أو الفكرة المقصـودة في ذلـك العهد الصاخب الـذي هيمنت على حِقَبِهِ عواصف العـدوان وعثرات الزمان، واشـتداد الحرب والفتن والصراعـات والاضطرابات، العنصرية والاحتـلالات الاجنبية، وتعدد الكيانات السياسـية والحكومات الاقليمية والاضمحلال الثقـافي والعلمي والأدبي، ومحاصرة اللغـة العربيـة والتراث الحضاري وانتشـار اللغـات واللهجات الأجنبية والآفـات الاجتماعية والامراض الفتاكة .

(*) كلية الاداب / الجامعة المستنصرية

ومـن يسـتطلع تاريـخ المـشرق العربـي عامه والعـراق خاصة، يجـد أن حقب العهـد العثماني مظلمـة مـن الناحيـة الحضارية بسـبب ما حاق في البـلاد من تخلـف وانهيار في جميـع النواحي. ومـع تلـك الانكسـارات والاندثـارات والاحتلالات المتعـددة من فرس وترك واوربيين وسـواهم ممن جعلوا العراق سـاحة لأطماعهم وظلمهم وتصفية حسـاباتهم. رغـم ذلـك يلتمس الباحـث المواظب بقايا بذور حية متناثـرة في تلك الاصقاع العراقية والدهور، تدل على امكانيـة النماء من جديد لمتانة الجذور واصالتها، وهو امر رائع يوقظ في النفوس ومضات التفاؤل بالمستقبل وسط ما كان سائدا من ظلام، فيأخذ بتلمس اضاءات ذلك النور رغم وهنها ليقف يسـتظل بقامـات المناضلين مـن الباحثين والمؤرخـين عـن اسرار تلك العهود. فـكان ان قدم عدد من عشاق الدراسـات التاريخية والاجتماعية عن العـراق اعدادا من التصانيـف والمؤلفات التي اخذ الحديث فيها عن دور المرأة العراقية مسـاحة بسـيطة ولكنها جدا مفيدة ومهمة الى جانب جهد الرجـل، فدونـوا افكارهم وانطباعاتهـم على نحو قصـص وحكايات ومواقـف وحوارات ومشـاهد وذكريـات على صفحـات سُـيّاح ورحالـة وقادة وكتاب ومؤرخين، مع ندرة وقلة المؤلفات عن المرأة عـلى نحو عام والدراسـات التاريخية والاجتماعية عـلى نحـو خـاص، واذا حصل شي في حقـل المرأة فانهم يمـرون عليه مرورا سريعـا او ضمن حالة المجتمع العام.

ولابـد للباحث او المؤرخ الراغـب في الكتابة عن مسـيرة المرأة العراقية في العهد العثماني ان يقف امام حالتين، الحالة الاولى هـي حالة المرأة المكملة لسـلوك الرجـل في الاسرة والمجتمـع، فهـي إما أم أو زوجـة أو اخت أو جدة أو عمـه أو خاله...الخ. وفي هذه الحالة نجـد الرابطة العاطفية تخيم على العلاقـة بين الافراد في البيـت والمجتمع وهي امور اعتيادية، تحتمها طبيعة حياة الانسـان التي يجب أن تبنى على التآلف والتعاون والانسجام كمخلوق مدني بطبعه، وصار الحديث عنها من البديهيات. أما الحالة الثانية لمسـيرة المـرأة فهي حالة التميز والإبـداع الذي غلبت فيه النسـاء الرجال الافذاذ او ساوتهم وهو المطلوب في بحثنا هذا.

ورغـم هذا الركام المتكاثـف في طريق الباحث حاولت ان اضع يدي على عدد من الحالات المتميزة في مسـيرة المرأة العراقيـة في العهـد العثماني، في معظـم جوانب حياة مجتمعنـا، وحين نذكر حالة أو حالتـين مـن حـالات الإسـهامات النسـائية في حركـة مجتمعهـن فإنها تعني بالـضرورة وجود حـالات اخـرى لم يتـح لها ان تـدون في صفحات التاريـخ المعلن فإنهـا تكون بمثابـة جهد جندي مجهول تطوع لخدمة الوطن والانسانية، وان هذه التضحيـة لا بـد ان تتوالد وتتكاثـف حتى تكون مبدءا اصيلا ساميا في حياة انسان المستقبل.

وسـوف نتناول في بحثنا المتواضع اربع فقرات متضمنـة الاشـارات الى الادوار النـادرة والبارزة للنساء العراقيات في تاريخ العراق العثماني، وهي:

أولاً: المشـاركة في الكفاح والدفاع عن الكرامة والمعتقد والوطن والحياة الحرة الكريمة.

١- حصلـت عـدة معـارك بـين عسـكر الأمـراء المشعشـعين العراقيـين، في جنـوب شرق العراق، وعسـاكر خصومهـم، كان مـن بينهـا معركة في منتصف القرن العاشر الهجري، في مدينة الحويزة عاصمة الاقليـم وضواحيها، بينهم وبين عسـاكر حاكم شـيراز التيموري السيد محسـن بن محمد

حاكم البلاد، وثار لها ثورة الأسد الغضبان، ولكن أعياه قلة افراد عسكره وابهضه كثرة أفراد عسكر عدوه، فتأمل وتحـير، فإن جبن خاف الملامة، وإن صال حذر الندامة، ولم يكـن التأمل طويلاً لقرب العدو وقوته وشدته وجرأته فتمثل وقال:

إذا أمكنت في العدى فرصة

فـلا تبدِ شغلك إلاّ بهـــا

فـإن لم تلح بها مسرعاً

أتـاك عـدوك مـن بابهـا

ثم قاده تصوره وسـاقه بأسـه وشدة فراسته، أن تشـارك النسـاء الرجال في الهجوم على عساكر حاكم شيراز، فأمر أن تلبس النساء ملابس الرجال وعدتهـم في الحـرب، ويلففـن رؤوسـهن بعمائم الرجال، ويقمن بسوق المئات من قطعان الجاموس والبقر، ويتلوهن من خلفهن الفرسـان شـاهرين سـيوفهم ورماحهم نحو عسـكر حاكم شـيراز في الحويـزة، وهكذا صالـوا على عسـكر التيموريين بقيادة السـيد نفسه، وكان عسـكر السيد في هذه الحالة والضخامة وجلبة اراجيز الرجال والنسـاء يبـدو مهيباً وأَدخـل الرعب في قلـوب خصومهم، فلما رأى عسكر حاكم شيراز هذه الصولة الرهيبة والكثـرة العددية والصخب المرعـب، أَخذهم الهلع فلم يتمالكوا أنفسهم فانهزموا مع قائدهم وبعض حلفائه، وأخذ فرسان السـيد ونساؤه يطاردونهم من خلفهم قتلاً وأَسراً وتسليباً حتى أوصلوهم آخر المنطقة وهم في أسـوأ حالٍ، حصـل هذا بتأثير تلك المشاركة النسائية [1].

٢- قام أحـد حكام المقاطعـات الايرانية المجاورة لأقليـم الحويزة جنـوب شرق العراق، باسـتدراج حاكـم الاقليم بدعوى القنـص والصيد في المنطقة الواقعة بين بلديهما، ولكنها كانت مكيدة من الحاكم الايراني لقتل أمير الحويزة العربي، وتم له ما أراد واسـتولى على قلعة مركـز المدينة، فأسـاء جنوده السـيرة مع السـكان واخرجوا المئات من سكانها إلى خارجها، وكان الايرانيون يغلقون أبواب المدينة عـصراً وتُفتـح ضحى، حـذراً من دخول عسـكر العرب فتأخذها، ولا يدخل للتسـوق إلا النساء، أَمّا الرجال فيقفون خارج البلد بانتظار عودة النسـاء من التسوق، وبعد مدة من المعاناة اتفقوا أن يدخل الرجـال العـرب مع النسـاء بزي النسـاء مخفين أسـلحتهم تحت ملابسهم وأمتعتهم، وبعد اكتمال دخولهم إلى وسـط المدينة يحملون رجالاً ونسـاءً حملـة واحـدة على عدوهـم فيحرروا معـاً بلدهم، وفعلاً هذا هو الذي حصل [2].

٣-قام اسـكندر باشـا الشركسي القائـد العثماني التركي بعدة حملات على منطقة البطائح والجزائر، وسـط جنوب العراق وكانت هـذه المنطقة تميزت بمعارضتها الشـديدة لـلإدارة العثمانية التركية، وحملـت بوجههـا السـلاح، فابتـدأت العسـاكر العثمانيـة حملاتها منذ عام (٩٧٥هـ- ١٥٦٧م)، بعد ذلك اشـتد بهم القتال والصراع، وأحسن أهل الجزائر والبطائـح الجلاد والإقـدام...[3]، فصرت همة الباشـا وعسـكره عليهـم، فأمر بسـدِّ الترع والشطوط قبل أن تدخل أراضيهم، فكان الماء الذي

(١) الحويزي – علي بن عبد الله – الرحلة المكية، ص٩١، طبعة بغداد، ٢٠٢٠م، شبر – جاسم حسن – تاريخ المشعشعين وتراجم أعلامهم، ص١٥- ٧٧، طبعة النجف، ١٣٨٥هـ- ١٩٦٥م.

(٢) الحويزي، علي بن عبد الله، الرحلة المكية، ص٩٢.
(٣) الكعبي، فتح الدين بن علوان، زاد المسافر، ط١، بغداد، ١٩٢٤، ص١٨.

يصلهـم بكميات قليلـة لا يكفي لسـد حاجاتهم، إضافة إلى فساد الماء بما لحقه من تعفن، فاشرفوا على الهلاك.. لذلك عزموا على اقتحام تلك الحواجز وإزالتها.. فحملوا السـلاح رجالاً ونسـاءً وسـاروا بجد وشـجاعة نحو عسـاكر العثمانيين ودفعوهم عن السـدود والحواجـز وفتحوا مجـرى الماء بعد مقتلة عظيمة كانت النسـاء تشـارك بفعالية فيها إلى جانب الرجال المغاوير، فما كان من العثمانيين الأتراك إلا الهزيمة والانسـحاب أمام ضربات أهل البطائـح والجزائـر، حصـل هذا لتضافـر جهود الرجال والنسـاء في دفع العدوان..[٤].

٤- قام جماعـة من المتمردين اللصوص بمهاجمة قرية عشـيرة بني كثـير في جنوب العـراق لينهبوا ويقتلـوا ويسـلبوا أمـوال النـاس وممتلكاتهـم، وكان رجـال القريـة في شـغل بعيداً عـن القرية، فطلعـت عليهم نسـاء القرية بالأعمدة والسـيوف وصدتهم عـن الهجوم وأسرت عدداً منهم وقتلتهم وخلصـن القريـة مـن كيدهم حصل هذا في سـنة (١١١٤هـ)[٥].

٥- في الربع الأوّل من القرن الحادي عشر الهجري السـابع عشر الميلادي، ظهر تجمع سكاني قبلي في جنوب منطقة الفرات الأوسط شمال ولاية البصرة جنـوب مدينـة السـماوة الحالية اطلـق على ذلك التجمـع مجازاً اسـم ولاية العرجة، أسسـها رجل تركي من بقايا الجيش العثماني اسـمه حسن آغا امتهـن التجارة وسـط تجمع قبـلي ضخم بحاجة إلى مركـز تجـاري لتوفـير حاجاتهـم الضرورية من ملابس وأطعمة واسـلحة ومتطلبات إنسـانية اقتصادية أخرى، تزوج حسـن آغا امـرأة عراقية من بنـي حكيم (حجيم) اسـمها (جوخـة) كانت عشـيرتها تسـكن تلك المنطقة ولبراعة تلك الامرأة وجرأتهـا وهمتهـا العاليـة صـار لها شـهرة بين سـكان البلاد، وسُـمي زوجها باسـمها بـ(حسن جوخة) وكان على درجة من السخاء الذي لا يقاس والشـجاعة التي لا توصف، ملك من الديار من حدِّ بـاب الحلّة والجوازر بأجمعها، حتى شـمال ولاية البصرة.

وكان عنـده ثلثمائـة مـن الشرطـة الخيالة إلى جانب أعـداد أُخرى من المقاتلين... ومن شـجاعة زوجتـه (جوخة) وفروسـيتها المشـهودة، توفرت عندهم قوة ضاربـة باشرافها حتى أنه ركب إليهم والي بغداد ووالي البصرة بعسـكر يتألف من عشرة آلاف حـاصر قلعة مدينة العرجة اربعين يوماً، وفي عـدة مرات يظهر حسـن آغا وزوجتـه جوخة على تلك العسـاكر ويلحق بهم الهزيمة والقتل والسلب والأسر.. [٦]، ممـا اضطـر خصومهـم أَخـيراً إلى الصلح معهم بتسـوية مادية.. كان ذلك الانتصار بحسـن إدارة جوخة الحكيمية، تلك المرأة البارعة ومشـاركتهاوشـجاعتها...[٧].

---

(٤) العزاوي، عباس، تاريخ العراق بين احتلالين، طبعة بغداد، ح٤، ص٩٠.
(٥) الحويزي، علي بن عبد الله، الرحلة المكية، ص٢٧٧.
(٦) الحويزي، عبد علي، السيرة المرضية، طبعة بغداد، ٢٠٢٠م.
(٧) الكعبي، فتح الدين بن علوان، زاد المسافر، ط١، بغداد، ١٩٢٤، ص١٨- ٢٠.

ثانياً: رد العدوان والتمرد على الظلم والطغيان والجور وتحقيق العدل الاجتماعي.

١- كان مانع بن شبيب شيخ قبيلة المنتفق في جنوب العراق في مطلع القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي، كان ذو طالع عظيم وسعد قوي وذا مراجل وبأس وثبات، وله من المحاربات المشهورة مع باشا البصرة الكثير، وفي إحدى هذه المواجهات تقدمت عليه عساكر العثمانيين وحلفاؤهم باعداد تزيد على العشرة آلاف عسكري من جهة جنوب الفرات، نحو شمال البصرة والقرنة وأحاطوا بعسكره وقومه، ولم يتراجع وهو في غاية الثبات والوقار فعظم ذلك على قبيلته، فتردد رأي أكثرهم ومالوا إلى العثمانيين، فنخا أخاه صقراً فأجابه صقر: إنَّ صقراً ما ينفعك بنفسه، فتفرقت عنه أغلب قبيلته إلاّ وجهاؤها وهي ناوية على الانحراف عنه، فخرجت زوجته (ميساء بنت عبيد آل رشيد) خالعة النقاب فنخت القوم وخطبت فيهم كلاماً مثيراً أيقظ حماسهم وأشعل حميتهم، فتألموا وبكوا ورجعوا إلى ميدان المعركة وهاجموا القوات العثمانية فكسروها وطرحوا باشا بغداد وجاءوا به أسيراً إلى الشيخ مانع والحقوا الهزيمة بالجميع بقوة إرادة زوجته ميساء وعزيمتها هي وغيرها من النساء المجاهدات... [٨].

٢- ذكر الرحالة الانكليزي (مستر هدجكوك)[٩]، إنطباعاته وتصوراته عن حركة المرأة العراقية ودورها في مسيرة الشعب العراقي في عدة مراحل زمنية ومواقع سكنية، في بضع صفحات متفرقة من كتابه (عرب الهور) نذكر منها لقطة عن واحدة من أعلام النساء وجهودها في قيادة قبيلتها ومجتمعها... [١٠].

٣- حصلت عدة مصادمات بين قبيلة (ل) وقبيلة (م) على امتلاك الأراضي الزراعّية واستغلالها، وفي كل مرة تتحمل كلتا القبيلتين خسائر في الأموال والنفوس، وفي زحام إحدى المعارك تقدمت امرأة من صفوف قبيلة (م) وأخذت تذكي الحماس والشجاعة في نفوس رجالها، ولما رأت عسكر قبيلة (ل) يتقدم على قبيلتها خافت أن يدب الرعب في قلوب أهلها، فخلعت النقاب وسلت سيفها وتقدمت مهرولة نحو عسكر القبيلة المعادية باهازيج المديح والفخر والإثارة.

وما أن رأى أبناء قبيلتها فعلها حتى اندفعوا بحماس خلفها بعنف وشدة حتى انتصروا على خصومهم، تلك السيدة هي (مكية بنت منشد) حرص الرحالة على زيارتها، فقاده الدليل إلى قريتها.. وقال الرحالة: وهناك وجدناها في انتظارنا بين عدد من أتباعها حيّتنا بوقار وبساطة... ثم قادتنا إلى مضيفها حيث قدم لنا الشاي والقهوة... وفي المضيف كان جلوسي قبالتها، وقد رأيتها سافرة تحكم أتباعها وتدير شؤونهم علانية، وهذا عكس ما عليه نساء الشيوخ من خباء وعزلة، وتلبس ملابس فضفاضة، وربما تكون قد تجاوزت الستين من عمرها، على أن أبرز ما لاحظته كانت ملامحها

(٨) الحويزي، علي بن عبد الله، الرحلة المكية، ص١٤٥.

(٩) هدجوك، مستر، عرب الأهوار، ترجمة، د. جميل سعيد، د. ابراهيم شوكة، طبعة بغداد، ١٩٦٦، (كانت المحاورة من ص١٠٥- ١٥٢).

(١٠) لم نذكر اسمي القبيلتين تحاشياً لما قد يحصل من سوء فهم للموضوع وما هو إلا أمثلة وحكايات لتوضيح فكرة وليس للثارات العشائرية المقيتة التي لا تزال سائدة في بلادنا مع الأسف..

البارزة المشعة ذكاءً وفطنة، ومظهرها العام الذي يحمل طابع إنسان اعتاد أن يحكم، كنت أراقبها وهي تلقي أوامرها، كلمات قصيرة لهذا الخادم أو ذاك... كانت تتصرف نفس التصرف الذي رأيته قبلاً من عشرات الشيوخ، ولو لا ملابسها التي تفشي حقيقة كونها إمرأة يحسبها الناظر شيخاً من الشيوخ...!

وكانت الكلمات الأولى التي وجهتها إليَّ... بعد عبارات الترحيب المعتادة... جافة أشعرتني ببرودة الاستقبال.. فقد جابهتني صراحة بقولها: أنا أكره الانكليز! ولما سألتها عن السبب أجابت... لقد أخذوا مني أحدَ عشر رجلاً هربوا إليهم ولم استطع استعادتهم ثانية... أليس هذا سبباً كافياً..؟ وقبل أن أرد عليها سمعتها تضيف على غير المتوقع.. ولكن.. لعل أولئك الذين اكتووا بالحديد المحمي لا يُلامون إذا هربوا...!

وعلى غير المتوقع أيضاً سمعتها تقول: وأنا كذلك أحب الانكليز... أُحبهم لا لأنهم كرماء فالكرم سهل على كل إنسان، ولا لأنهم شجعان، فأني استطيع أن أجعل الجبناء شجعاناً.. لا ... أحب الانكليز لأنهم أقوياء فقد تغلبوا على العرب والأتراك.. وربما كانوا أقوى من أي دولة أخرى على سطح الأرض..! وكان الزهو الذي بدا من مكية.. وقد أخذت تضحك وهي تجيب على اسئلتي الخاصة.. كانت نكاتها لاذعة، وكان لسانها ساخراً بل مؤلماً وقاسياً احياناً، كانت تبدو كما لو أنها تعرف دخائل كل نفس وخفايا كل صدر.. وانتقل الحديث بيننا عن مركز المرأة الانكليزية في المجتمع الانكليزي، وقد هزأت بنا عندما قالت إن رجالكم على درجة كبيرة من البخل، فكيف يتزوجون نساءكم ولا يدفعون لهن مهراً!! كما هزأت عندما علمت أن نساء الطبقة العليا سافرات لا يتمتعن بحق الحياة، ولما اشرت إلى أنها سافرة وتتمتع بحرية لا حق لها فيها بحكم البيئة، التفتت إليَّ وقالت... أنا مكية...!!(١١).

٤- كانت عشيرة (س) مستقرة على ضفاف نهر المشرح المنحدر من جنوب نهر دجلة نحو الشرق تعيش وتعمل في الزراعة وتربية الحيوانات في منطقتها، وقد أخذ الطمع والغرور شيخ عشيرة (م) فأراد أن يوسع نفوذه وسلطانه على حساب عشيرة (س) المجاورة، فقام بشن هجوم كاسح عليهم على حين غرة، وأجلاهم عن أراضيهم وممتلكاتهم إلى أراضي دولة مجاورة، وهكذا عاشت عشيرة (س) شظف العيش والعوز وذل الغربة مدة سنتين، وكان رجال تلك العشيرة يجلسون بين الحين والآخر أمام بيت أحد وجهائها يتلاومون ويتألمون ويفكرون في طريقة للخلاص من تلك المأساة، واستمروا على ذلك عدة شهور دون نتيجة...

وفي عصر أحد الأيام وهم في لقائهم المعتاد، خرجت زوجة صاحب البيت خالعة النقاب وبيدها عمود مهرولة باتجاه مواقع عشيرة (م) المعادية، ولما شاهدها زوجها سارع وسل سيفه ووثب على زوجته يريد قتلها، قالت له ما تريد قال اريد قتلك لعدم اكتراثك بهؤلاء الرجال، اجابته ليس في هذا المجلس رجال وإنما هم نساء مثلي، ولا بأس علي إن أنا خلعت ثيابي أمام أخواتي، وإذا كان هؤلاء، رجالاً ما تركوا أراضيهم وديارهم لأعدائهم، فاغمد الرجل سيفه وكرَّ راجعاً إلى أصحابه، وقال لهم

(١١) هد جوك، مستر، عرب الأهوار، مصدر سابق، ص١٠٥-١٥٢.

مـاذا ترون فأجابوه بحماس غداً نسـوي صفوفنا ونهجم على أعدائنا رجالاً ونسـاءً شيباً وشباناً ولا نرد عنهم حتى نحرر وطننا، وفي صباح الغد سووا صفوفهم وامتشـقوا سيوفهم وأسلحتهم وهاجموا أعداءهـم وأجلوهـم عن ديارهم بهمـة تلك الامرأة وشـجاعتها...[١٢].

٥- وفي عـام (١٣٠١هـ) باغت (ص) زعيم إحدى العشـائر عشيرة أخرى مجاورة لغرض التوسع في النفـوذ والممتلكات بهجوم عنيف، فتصدى له (ع) زعيم تلـك القبيلة وزوجته السـيدة (زاكية) التي عمـدت إلى جمع حاشـيتها وصديقاتها من نسـاء العشـيرة حامـلات المتوفـر من الأسـلحة وتقدمن عسـكر قبيلتهن وانزلن هزيمة منكرة بالمهاجمين وخسـائر فادحة، ملتحمات مـع الرجال بحماس وأهازيج أدخلت الرعب في نفوس الأعداء.. [١٣].

ثالثـاً: العمـل عـلى نـشر الفضيلة وإشـاعة السلوك الإنساني الحضاري:

١- كان منصـور بـن عبـد المطلـب حاكـم اقليم الأحـواز قد أمر باعتقال رجلين مطلوبين للحكومة بمبلغ (٤٠٠) دينار، ثم أمر المحصلين أن يخرجوا بهمـا إلى السـوق والأزقـة لغرض التشـهير بهما ويضربوهما أمام الناس بالسـياط، ولكن الرجلين غافـلا المحصلين وفلتا من أيديهم ودخلا بيت أحد السـكان المدعو (رحمة بن عبيد) طلباً للاستغاثة، ولـم يكن صاحب الـدار حـاضراً، فقامت زوجته أم عـوض بحماية الرجلـين، وأرسـلت حليها بيد جاريتهـا مع الرجلـين إلى الحاكم ووضع المال بين يديـه، فقدر الحاكم فعلهـا وكرمها بإطلاق سراح الرجلين وارجاع مالها مع مبلغ آخر تكريماً لها[١٤].

٢- وفي موقف من مواقف الشرف والكرامة لبعض نسـاء تلك الربوع والأوقات، موقف متميز لزوجة الأمـير منصور بـن عبد المطلـب حاكـم الحويزة (١٠٤٤- ١٠٥٣هـ) عندما أزيح عن الحكم وأبعد إلى خارج بلاده، خشيت زوجته من متابعة الحاكم الجديـد وخصوم زوجهـا فارتحلـت بالخفاء من الحويزة إلى البصرة مـع جواريها وغلمانها، وكان من بـين الأثاث والعدد الثمينـة العائدة إلى زوجها منصـور مجموعة دروع ذات مواصفات خاصة في خزانة زوجهـا، أخذت هذه الـدروع معها جميعاً إلى البـصرة وبقيت في البـصرة متخفية طوال مدة حكـم الحاكـم المعادي لهـا ولزوجهـا، وقد زاحم الفقـر والعوز هـذه المرأة الحرة التـي إلى حد أنها لا تملـك إلا تلك الدروع... وباتـت في بعض الليالي والأيام هي والحشـم والخدم بلا طعام، وفي صباح الغـد قدر الله سـبحانه عـلام الغيـوب والأسرار، أن مجموعة مـن الأفرنج الأجانب كانوا يسـكنون في محلة العشـار قريباً من بيت تلك المرأة فشـبت النار في أحد مخازن البارود في الخان المستأجر من قبلهم، فوقع انفجار ضخم أدى إلى تناثر محتويات الخـان، كان من بينها (قالـب) ذهب خالص كبير وقـع في دار المرأة ... فتغير حالها وحسـنت أيامها إلى وقت وفاتها.. وأرسلت الدروع النادرة إلى حاكم الحويـزة الجديد الذي ليـس بينها وبينه خصومه وقـد صانتها من التلف والضياع كأمانة أعيدت إلى

(١٢) الندواني، عبد الكريم، تاريخ العمارة وعشائرها، طبعة بغداد، ١٩٦١، ص١٢٢.
(١٣) المصدر نفسه، ص١٢٣.
(١٤) الحويزي، علي بن عبد الله، الرحلة المكية، طبعة بغداد، ٢٠٢٠م، ص٥٧.

أهلها[١٥].

٣- في ولايــة الســيد عــلي بن خلف لحكومــة إقليم الأحواز (١٠٦٠- ١٠٨٨ هــ) ارسل الوالي في طلب أحد المتهمــين المدعو (نصر اللــه..)[١٦]، وكان أحد المخالفين للحكومة، فأخرجه رجال الأمير من بيته، فلما وصل قرب بيت السـيدة (علياء بنت علي بن خلف) بنت الأمير وزوجة غالب بن خميس، انفلت المتهم من أيدي حراســه ودخل بيت علياء المذكورة واســتجار بهــا فأجارته وحمته، وذهبــت إلى بيت أبيهــا تطلب العفو عنه، فلبى طلبها وعفا عنه بناء على طلبها وأطلق سراحه [١٧].

٤- تعــد القراءة والكتابة وشــيوع اقتناء الكتب في مقدمة مظاهر التطور الحضاري الإنســاني ولكن الأميــة في حقــب العهــد العثمانــي كانــت ضاربة أطنابهــا في كل مــكان من العــراق ولذلك كان من مهــام دعاة التحــرر رجالاً ونســاء تعلــم القراءة والكتابــة وشــيوع الثقافــة العلمية التــي تعد في مقدمــة التحرر بكل صــورة... ذكر أحد الســواح أنه كان يســير مع جماعة في أحد شوارع البصرة، فتقدمت نحوهم امرأة وبيدها ورقة وســألت القوم هل تبصرون...!

فأجابهــا الجميع أما ترينا نســير ونميز طريقنا، فرفعــت إليهم الورقة المكتوبة وقالت لهم اقرأوا ما في هذه الورقة وأفهموه إن كنتم تبصرون، فسكتوا إذ لــم يكــن فيهم مــن يحســن القــراءة والكتابة، والمعنــى المســتخلص لمــا قامت بــه تلك الســيدة المجاهدة معرف... [١٨].

(١٥) المصدر نفسه ، ص١٠٥.
(١٦) المصدر نفسه، ص٩٢.
(١٧) شبر ، جاسم حسن، تاريخ المشعشعين، ص١٣٣.
(١٨) الندواني، عبد الكريم، مصدر سابق، ص٢٢.

٥-ورد في الأقــوال: وراء كل رجــل عظيم امرأة.... وجاء في الشعر:

الأم مدرسة إذا اعدتّها

اعــددت جيلاً طيب الأعــراق

في هذه الســطور نذكر نبذة عن ســيرة العلامة الشــيخ الفــذ مرتضى بــن محمد أمــين الأنصاري (١٢١٤- ١٢٨١هــ) ودور السيدة الفاضلة والدته في تربيتــه منــذ ولادته حتــى بلوغه مبلــغ الرجال العلمــاء، كان نــادرة زمانه ونابغة عــصره ومثالاً حياً للعلم والعمل، ونبراســاً يقتدى به في الاجتهاد، ومــرآة للورع والتقوى، وصــورة صادقة للأخلاق المحمديــة، ومدرســة أنموذجية للتربية الإســلامية العالية، اســتضاء بنور علمه العلمــاء، ولاذ بكنفه الفضــلاء، ولا تــزال الهيئــات العلميــة في النجف الأشرف وغيرها تتغــذى بتراثه العلمي منذ أن نبغ وجاء إلى الوجود...

كيف وصل هذا العالم إلى هذه المرتبة الرفيعة والمكانة المرموقة تشير الدراسات التي تناولت سيرة الشــيخ مرتــضى الأنصاري دور والدتــه في تربيته واعداده وتشــجيعه على مسيرته العلمية وطموحه نحو الســمو العلمي والثقافي والاجتماعي، وكانت هذه المرأة الصالحة المؤمنة عابدة تقية مواظبة على القيــام بجميــع العبادات من الفرائــض والنوافل، مكبــة على صلاة الليل ولم تفتهــا من نافلته ركعة واحدة حتى أخريات حياتها.

قيل أنها بلغت من الورع وصلابة الإيمان مقاماً كانت تؤثــر الانصياع للشرع الشريف في كل بادرة مــن بوادر حياتهــا، ولم تتأخر عــن فعل الخير ما اســتطاعت إلى ذلــك ســبيلا، هذا وقــد نقلت عنها بوادر كثيرة تدل على عمــق إيمانها منها بادرتان، هما:

• أنهـا لـم ترضع هذا المولـود المبـارك طيلة مدة الرضاعة إلاّ وهي متطهرة.

•كان للشـيخ المذكور أَخ من أهل العلم والفضيلة ، وكان ضعيف الحال كثير العيال، فرقّت عليه والدته المذكورة، وكان ولدها الشـيخ الكبير قد ألقيت إليه الرئاسة الدينية وما يتبعها من مهام وأمور مادية وروحية يديرها بين أتباعه من رواد العلم وطلابه، وكان يجريها عليهم حسـب احتياجاتهم وبعدالة متناهية..

قالت الوالدة لولدها العلامة: إنَّ أخاك ضعيف الحال، كثير العيال وراتبه المقرر لا يسد مصاريفه اليوميـة، وأنت تراه بهـذه الحالـة والأموال تحت تصرفـك، وتتمكـن مـن إعطائه أكثر ممـا تعطي الآخريـن، فلمـا سـمع الشـيخ مقالة أمـه ناولها مفاتيـح الغرفة التي فيها الأموال، قائلاً لها بلهجة المؤمـن الذي لم يخضـع لمنطق العاطفـة: هاكِ يا أماه مفاتيح الغرفة وافتحيها، وخذي من الدراهم البيض والدنانير الصفر ما شئت، وما يكفي ولدك الفقـير، على أن أكون أنـا في حـلٍ، وتتحملين أنتِ تبعاته ومسـؤولياته يا أمـاه. إن هذه الأموال التي ترينها مجتمعة عنـدي هي حقوق الفقراء، وذوي الحاجات، توزع عليهم على حد سـواء فكلهم فيها سواسية كأسـنان المشط لا تمييز بين واحدٍ وآخر. يا أماه إن كان لـك في الغد جواب عن الزيادة التي تأخذ لولدك فاعملي ما شـئت، فإن وراءَكِ حسـاباً دقيقاً فماذا تصنعين؟

فزعـت الوالدة من هـذه الكلمات، وسرت رعدة الخوف من الله عز وجل في جميع أوصالها، وعلمت أن لها يوماً عسـيراً، وحسـاباً دقيقاً لا يشابه عالم المادة والشـهوات، فرفضت المفاتيح وسـلمتها إلى ولدها، وتابت إلى الله تبارك وتعالى من تلك المبادرة التي لـم تتدبر عواقبهـا في بداية الأمر، وتناسـت بؤس ولدها الفقير وإملاقه واعتذرت منه.

عجبـاً!! إن هذه المرأة ذات العواطف الرقيقة، المليئـة بالحنان لاولادها، فهـي تبذل كل مالها من الجهود في سـبيل تمشـية أمور أولادها وترفيههم وترقيهـم في المجتمع مهما بلـغ الأمر، لا يوقف عن عزمها أي شيء فكيف سـلمت المفاتيـح إلى ولدها حين سـمعت مقالـة ولدها البار بأمـه؟ نعم الأمر هكـذا، لكن الذي دعاها إلى التسـليم: هـو إيمانها بالله العزيز ويقينها بيوم الحسـاب، فهنيئاً لهذه المرأة المؤمنة التي شـعرت في الحال باليوم العسير والحسـاب الدقيق والمسـؤولية الصعبـة الخطرة حتـى رجعـت عمـا طالبـت، ولـم تدنـس ثوبها بالسحت والأوساخ، وحطام الدنيا الدنية القصيرة التي يتكالب عليها طلابها، وبهذه الروح الطاهرة، والملكات الفاضلة أنجبت الشـيخ المذكور الذي هو عملاق الفقه والأصول في الاسلام.

فقد عكف عـلى كتبه ومصنفاته وتحقيقاته كل من نشـأ من بعده مـن علمائنا الأعـلام، والفقهاء العظام إلى عصرنا الحـاضر، والأعصار الآتية فهم عيـال عليه ومغترفـون من منهله العـذب، ولتكن هذه المرأة الفاضلـة المؤمنة الصالحة مثالاً صالحاً لنسائنا اليوم لتجشم الصعاب والصبر على الشدائد وايجاد الحلول للمعضلات الشائكة.. [١٩].

٦- قـام فـرج الله بن عـلي حاكم بطائـح جنوب شرق العـراق (١٠٩٧- ١١١٤هـ) باعتقال عدد من مشـايخ قبيلـة الفضـول العراقيـة المعارضة

(١٩) الأنصاري، الشيخ مرتضى محمد أمين، المكاسب ص١٩، ٢٠، ٢٥، ٢٦، ٢٧، طبعة بيروت، (١٤) مجلد، ٢٠٠٦م.

لحكـم ذلك الأمير ونفيهـم ، وأَصرَّ على عدم إطلاق سراحهم، وتغريمهم أنواعاً من الغرامات.. فما كان من وجيهات وأعلام نساء القبيلة إلا أن شكلنَ وفداً نسائياً على مستوى عال، وتوجهن إلى بيت الحاكم ونزلـن ضيفات على أسرته وعائلتـه، وقدمن طلب العطف والعفو عن هؤلاء المشايخ والوجهاء، فأكرم الحاكـم وفادتهن واطلـق سراح أولئـك المعتقلين دون قيـد أو شرط تقديـراً للنسـاء الشريفـات الكريمات....[٢٠].

٧-حليمة البصيرة:

قال المتنبي :

خير مكان في الدُنا سرج سابح

وخير جليس في الزمان كتاب

المعروف لدى الشعوب والأمم والدول المتحضرة، أن الاهتمـام بالكتاب وكل ما يمت له بصلة سـمة حضاريـة متقدمـة، تنـم عـن مسـتوى الأصالـة الحضاريـة حتى وإن واجهتها عقبات تحول دون انتعاشها...

وخـلال حقـب العهد العثمانـي في العراق رغم ما شـابها من تخلـف وجهـل وصراع، كانت تبرز وسـط المجتمع العراقي إضاءات تدل على سـلامة الجـذور التي يمكـن أن تزهر حينما تجـد البيئة الملائمـة، والباحث في تاريخ العراق العثماني يعثر على شـواهد متناثرة تـدل على الاهتمـام بالكتاب والعالم والمتعلم، ومنها هـذه الحكاية التي ينقلها لنا السائح الانكليزي: (مستر هدجكوك) في جولاته في جنوب ووسط العراق، ففي إحدى زياراته لموقع آثاري مجاور لإحدى القرى وسـط البطائح ومعه دليله يقول: (وعندما نزلنا، وجدنا الأرض مفروشة بقطـع من الفخار قد خبا لـون بعضها بينما كان البعض الآخر لا يزال يلمع صافياً كزرقة السـماء، وكانت هناك قطع أخرى بأشـكال وألوان مختلفة، وبينهـا طابـوق مربـع الشـكل، وعليهـا كتابات مسـمارية، وبينما أقلب طرفي بين هـذه المخلفات التـي تكون حقلاً غنيـاً أمام علمـاء الآثار، حانت مني التفاتة فرأيت امرأة عجوزاً قد تقوس ظهرها تحت عبء سـنين طويلـة، يقودها أحد الرجال إلى دليلي، ثم لم يلبث هذا الأخير حتى أقبل بها نحوي، وقد لاحظت من العناية التي توجه إلى خطوها أنها عمياء، كانت منحنية تهتز مـن الكبر وتكابد عناءً كبـيراً في مشـيتها الوئيدة عـلى الأرض،... قال لها دليلي هذا هـو الصاحب تكلمي يا أم الكل وأعطيه ما أتيتن بـه، فتقدمت نحوي خطـوة أو خطوتين وهـي تقول: (هـو إفرنكي حقيقـة...) فقدمت لي شـيئاً ملفوفاً في خرقة من القماش العتيق وقالت: كانت إرادته أن اسلمه لواحد افرنكي من جنسه... وها أنا ذا قد وفقت لطاعته والحمد لله....!

حلَّ الخرقة فوجد فيها كتاباً قديماً مكتوباً باليد، مغلفـاً بغلاف مـن الجلد وفي صفحتـه الأولى هذا العنوان: (قصة رحلات شـخصية في بابل وآشـور وميديا واسكيدنا في ١٨٢٤م. تأليف المأجور جورج كيبيـل، ف. س. أ...)، وأخـذ يقلب الكتاب فوجده كتاباً سياحياً يتحدث فيه المؤلف عن معالم العراق السياحية من الشـمال إلى الجنوب، وكانت تربطه علاقات تجارية مع الـشركات الأوروبية ومكاتبها في مدينة البصرة، ثم استقر لبعض الوقت في قرية مـن قرى وسـط الهور، وأقـام علاقة مع سـكان تلـك القرية وعشـيرتها ومـع أسرة تلـك العجوز التي أسـمها (حليمة)، وكانت في عمر الصبا وذات

(٢٠) الحويزي، علي بن عبد الله، الرحلة المكية، طبعة

ملامح جمالية جذابة، وتربطها معه علاقة مجاملة ولطاقة الطفولة البريئـة، وفي أحد المرات كان أهل القريـة في مشـاغلهم الخاصة، قامـت جماعة من الشـذاذ الفوضويّين بمهاجمة هذا السائح وخطفه بهدف قتله، ولسـبب ما تركـوه وهو في آخر نفس من حياته، واشـعلوا بالقرب منـه ناراً على أمل أن يحترق، ثم انسـحبوا، وشاء القدر أن لم يرعه أحد من أهل القرية سوى تلك الصبية (حليمة)، فعملت عـلى اطفـاء النـار وخلصته مـن الحـرق، وألقت عليـه ماء فانتعش وجلس ورتـب أموره للهرب في داخـل غابات القصب والبردي، للخلاص من هؤلاء العدوانيـين، وكلـف (حليمـة) أن تحفـظ الكتاب الـذي تضمـن المعلومـات السـياحية والحضارية عن العراق وتسـلّمه إن اسـتطاعت أن تحتفظ به، إلى سـائح أوروبي آخر قد يأتـي إلى ديارهم، وهو تصـور وبعد نظر لاهتمامـات الأوروبيين بالعراق والشرق الأوسـط منذ مطلع القرن السـادس عشر الميلادي...، وقد لحق ضرر بالصبيّة (حليمة) وهي تكافـح عن هذا السـائح الأوروبي النـار، فتأثرت عيونها وأصابها العمى بعد ذلك، ولكنها احتفظت بهذا الكتاب بما يساوي المئة سنة، ضمن مقتنياتها ومدخراتهـا الثمينة، لكي تسـلمه إلى أوروبي آخر يأتـي به القـدر إلى منطقتها هـذه الحادثة تطرح عدة تسـاؤلات وأفكار عن مستوى الوعي الإنساني والحضاري عند تلـك الفتاة (حليمة) التي صارت بعـد ذلك عجـوزاً معمرة، وجعلـت الكاتب يطرح بعض الأسئلة بحيرة واعجاب! وذهب إلى بيت تلك المرأة وتحدث معها، ثم أخذ يدون بعض ملاحظاته الفكرية والحضارية منها...؟

«وكنـت وأنا اقرأ الكلمات أسـأل نفسي، كيف وقع هـذا المجلد في يد هـذه العجوز من نسـاء الهور؟ ومـا هي الأهميـة الكبرى التي حملـت هذا الكاتب المجهول يرجوها أن تسلمه لآخر من جنسه....!؟ وقضيـت وقتاً طويـلاً أفكر في المـرأة العجوز وفي الكتاب الذي أعطتنـي إياه... وطلبت من صاحبي أن يأخذنـي إلى بيتها... قالـت لا أكثر من أنه كان صديقاً لعشـيرتي وكانت عشـيرتي صديقة له... لقد قمت بما سـألني القيام بـه فأعطيتك الكتاب لأنـك من بني قومه»... ثم شرحـت له ما قامت به العصابة التي اعتدت عليهم.

«وقد أخذتني الشفقة عليه فعزمت على أن انقذه، فتسللت بين سحب الدخان وقطعت قيوده وقلت له إذهب واختفِ في غابـة القصب منهم.. ولكن النار نشـبت وعلقت بملابسي وشـعري، فجريت أصرخ والقيت بنفسي في الماء... لقد أصبحت عمياء» وكان الكاتب بعد قراءة كل فقرة يطرح حكمة أو سـؤالاً أو حـيرة كان آخرها هذا التأمـل المتفائل:« أيكون هذا دليلاً على أن شـعب هذه البلاد سيكون في يوم ما أمة عظيمة؟ أم هل هذا هو النفس الأخير لشعب مجيد قد تدهور...!؟».

ونحـن نقـول أن هذه القصـة تحمل كثيراً من معانـي البطولـة والتضحية والأخـلاق الرفيعة في سجل المرأة العراقية الخالد... [٢١].

٨- خدعة وتدبير نسـائي:

في يوم من أيام الحرب العالمية الأولى وفي خضم الـصراع والحـرب بـين الانكليـز والعثمانيين على احتلال العراق، بينما كان قـارب القوة الانكليزية يشـق طريقه في ممرٍ ضيق محاط بأسـوار عالية

(٢١) هدجكوك – مستر، عرب الأهوار، مصدر سابق، ص١٩٢- ٢٠٢.

مــن القصب في دجلــة، وعلى الأخص بــين العمارة والعزير، توجد مناطق يضيق فيها المجرى، فيقوم رجــال القرى المجــاورة لضفــاف النهــر بالرمي نحو قوارب وســفن الاحتــلال البريطاني ما يلحق بها بعض الضرر، لذلك قامت الســلطة العسكرية بتفتيــش تلك القرى بحثاً عــن الرجال الفاعلين.. فلما بدأ أفراد السلطة العسكرية بتفتيش أول قرية، بــدت لهم القرية كما لو كان رجالها قد هجروها ، فلم يروا إلاّ بضع نســاء أخذن يحملقن في الزورق الحامل للجنود بدهشــة، ثم جاءت إحدى النســاء مــن الأكواخ، وتقدمت نحو قائــد الحملة وقالت له تفضــل وقادته إلى بيتها، ثم قدمت له الشــاي، ثم نهض القائد مع شلته فتطلعت إلى وجهه وأشارت إلى الطــرف الآخر من الكوخ، فــرأى طفلاً صغيراً حديــث الولادة في مهده، قالــت أنه جديد ثم أخذت تداعبــه، وربما كانت ترغــب في إطالة الوقت حتى تتــم وضع خطتها لإنقــاذ القرية من غضب القائد وجنوده، وطالت الوقفة وظن أنها تنتظر منه هدية للطفل، فأخذ المنديل الذي كان مربوطاً حول عنقه واعطاه إليها، ففرحت به (تلك هي غواشــة زوجة ســليم) رئيــس القرية الــذي اختفى مــع الرجال الآخرين في غابة القصب المجاورة...

ثم ســأل القائد المرأة عن ســليم فأجابت بسرعة خاطرٍ، ســليم زوجي ورئيس هذه القرية، ثم قال لها أينَ هو الآن؟ فقالت ذهب لأمر يخصنا، قال وما هذا الأمر...؟ فأجابت اســترح وأنا اخبرك، وجلس القائد على البساط المفروش بينما وقفت (غواشة) أمامــه، ولا تزال تداعــب المنديل الحريــري، فقال لهــا نعم تكلمي، فجلســت وأخــذت تتكلم بصوت منخفــض وقالت، رجــال هذه القرية فقــراء، وأنا مع كوني امرأة أســوقهم بعصــا أمامي كالقطيع، فقال القائــد متهكماً يبدو أنك ســقتِهم هذا اليوم من القرية، فأجابت (غواشــة) لقد ارسلتهم اليوم جميعــاً لينفــذوا أمــراً كلفتهم بــه، فقــال القائد بغضــب وما هذا الأمــر، فقالت هــل إذا ذكرته لك تمنحنا الأمان؟ فأجابها، نعــم أنتم آمنون فقالت، ذهبــوا للسرقــة فقال لها أهم الذيــن سرقوا بعض المــواد من زوارقنا، قالت نعم ولكنك اعطيتني وعد شرف بالأمــان يا قائد، فلو قلت لرجال هذه القرية أسرقوا يسرقــون ولو قلت لهم لــن يسرقوا فإنهم لن يسرقون فــإذا جنابك وعدتنا بــأن تعطي لكل طفل جديد الولادة هدية كهذا المنديل ســوف أقول لهــم لا تسرقــوا، ويكونون أصدقــاء لكم، فضحك القائد ووعدها بما سألت... وبهذه المناورة الهادئة تم انقاذ قريتها مــن الحرق ورجالها من القتل أو الاعتقال... وهو لا شــك تدبــير رائع وحكمة نادرة تقوم بها امرأة كفوءة... [٢٢].

رابعاً: التعاون المطلق مع الرجال في كافة أبواب الحياة الاجتماعية والاقتصادية وغيرها:

ورد في الأدب:

الناس للناس من بدو ومن حضر

بعض لبعض وأن لم يشعروا خدم

طبيعة حياة الإنسان اقتضت التعاون بكل صور الحياة، وإذا لــم يحصل التعاون وإداء الأدوار بين الرجال والنساء، تكون مسيرة الحياة أمراً لا يطاق، فالحيوانات غير الناطقة تتعاون بدافع غريزي على بناء أعشاشــها وبيوتها وبعض متطلبات حياتها، فكيف بالكائن الناطق الذي هو أحوج ما يكون إلى التعاون لمواجهة متطلبــات العيش الكثيرة، ولكن

(٢٢) المصدر نفسه ، ص١٩٢- ٢٠٢.

يبرز مقدار مساحة ميدان العمل الذي يتحرك فيه الرجال والنساء، وهذا الأمر تحدده ظروف البيئة في أكثر الأحوال، وفي حالة المجتمع العراقي نجد أن هناك ثلاث بيئات تكاد تكون سارية إلى عصرنا الحاضر، وهي المدن والقرى والبادية، ونسب السكان تختلف في هذه البيئات ففي حقب العهد العثماني كانت نسبة البداوة هي الأكثر في عدد السكان، ثم تليها نسبة القرى والأرياف، ثم نسبة سكان المدن، وفي مطلع القرن العشرين حينما أخذت الحداثة طريقها في المجتمع ازدادت نسبة سكان المدن ثم القرى وآخرها سكان البوادي، وفي هذه المجتمعات الثلاثة كانت اسهامات النساء تختلف عن بعضها البعض.

ففي ظروف حياة التنقل تحتم أن تتمتع البدويات بحرية كبيرة بالمقارنة مع نساء المدن، ذلك أن انعدام البيوت الدائمة يؤدي إلى انعدام الحياة المغلقة، حيث يكون من المفهوم تماماً أن يتعذر في ظل العيش تحت الخيام إفراد جزءٍ خاص بالنساء منفصل تمام الانفصال... ولا يمكن للبدوي أن يخفي زوجته عن أعين رجال قبيلته بسبب أن النساء يضطلعن بجميع الاهتمامات المادية، ويقمن بأصعب وأثقل الأعمال البيتية، فهن ينصبن الخيام ويرفعنها ويجلبن المياه ويجمعن الشوك والحطب الجاف للوقود، ويجلبن الماشية إلى المراعي والموارد ويستخرجن الزبدة ويطهين الطعام ويغزلن الأصواف والشعر، وباختصار ترتكز عليهن بشكل كلي حياة العائلة بأجمعها وفي ظل مثل هذه الحياة الحافلة بالعمل والنشاط لا يمكن اطلاقاً تحويل البدويات، كما جرى بالنسبة للعربيات من سكان المدن إلى مخلوقات عاجزة لا تكاد تستطيع تحريك أرجلها تحت عدد لا يحصى من الحجب والأغطية.. وبعد أن ألقى الرجال بكل ثقل الأعمال اليومية على عاتق النساء بحجة أن العمل البدني والسلمي بما فيه الزراعة مهين للبدوي الحر، ولم يبقوا لأنفسهم إلاّ الغارات الوحشية والأعمال الحربية والصيد، وما حياة البدوي خارج نطاق هذه الأعمال التي يعتبرونها أعمالاً شريفة إلاّ خمول تام وبطالة، حيث يقضي الرجال الجزء الأغلب من النهار متمددين على أرض الخيمة يتجاذبون مع بعضهم أحاديث لا تنتهي...

وبمجرد أن تظهر الحاجة للبحث عن مرعى جديد، يجتمع وجهاء القبيلة في خيمة الشيخ للتداول، فيتفقون على تعيين يوم ترفع فيه الخيم، ويحددون محل نزولهم الجديد، لتبدأ القبيلة بالاستعداد بنشاط الانتقال حيث يقتصر دور الرجال على نقل أوامر الشيخ إلى النساء اللواتي تقع بعد ذلك على عاتقهن كل أعباء العمل في إعداد عوائلهن للمسير، وعندما تصل القبيلة إلى المكان الذي تقصده، يختار الشيخ المكان الذي يقام فيه المخيم، ثم يُعين كل بدوي مكان خيمته تاركاً للنساء تدبير الشؤون الأخرى، وأول عمل تقوم به البدوية في هذا المجال هو نصب الخيمة وإعداد الغذاء للعائلة، ثم الاهتمام بعد ذلك بالحيوانات كسقيها الماء ووضعها في محل تبيت فيه جوار الخيمة ثم تشرع بترتيب الأمتعة التي تمتاز بالبساطة، فتضع في القسم الخاص بالرجال البنادق والسروج والأمتعة والأثاث كل في مكانه وأثاث البدوي على العموم بسيط ومتواضع وكحياته نفسها.

١- وتبرز أمامنا لوحة رائعة لتعاون البدويات أيام الرحيل أو التنقل، تقوم على التعاون لتقديم الغذاء للقافلة دون الحاجة إلى توقف المسير، وتقوم على

مبدأ تقسيم العمل بين عدة نساء وهنَّ على ظهور الإبل، حيث تقوم واحدة بطحن الحنطة أو الشعير المعدة سلفاً برحى يدوية دون أن تترجل عن جملها ثم تعطي الطحين إلى امرأة أخرى تقوم وهي على ظهر الجمل أيضاً بتحضير العجين منه، وذلك بأن تسكب عليه ماء من القربة المعلقة بجانبها، ثم تناوله إلى امرأة ثالثة تقوم بخبز العجين على صاج أوتاده صغيرة بحذر شديد لكي لا تصل الحرارة إلى ظهر الجمل، ثم تسلم الخبز إلى امرأة رابعة تقوم بثرده بحليب أو لبن الإبل، بعد ذلك يصل إلى الأفراد ليأكلوه.. أليست هذه حالة مثالية من التعاون تقدمها النساء البدويات.

أما في حالتي نساء القرى والمدن فالتعاون أيضاً قائم بين النساء ومجتمعاتهن رغم القيود المفروضة عليهن [٢٣].

٢- يذكر الرحالة ولفريد تيسيغرد في جولاته في بطائح جنوب العراق، أن سوء الأحوال الجوية اضطرته أن يلجأ إلى أحد البيوت في طريقه، وكان (حسن) صاحب البيت خارج البيت للصيد، فاستقبلته (أم حسن عفرة بنت مكنزي) فرحبت بالضيف وأوقدت النار للتدفئة وتجفيف الملابس فيقول عنها :

كانت امرأة ضخمة ذات نفوذ في القرية، نافذة نفسها لولدها وعائلتها وقريتها، تنحدر من أسرة وعشيرة معروفة، اجتمعت لها عدة خصال منها: الكرم، والجمال واعتدال البنية ومتانتها، تحظى بإعجاب واحترام كل من رآها، لها نزعة قيادية مهيمنة، تعرف عليها عدد من الرحالة وتحدثوا معها ونشروا لها بعض الصور، كانت تدير شؤون قريتها بكفاءة وتنظم أمورهم [٢٤].

٣- في أواخر سني العهد العثماني في العراق عام ١٩١٢، كان عثمان بيك مديراً لشرطة لواء العمارة وكان متشدداً وقاسياً في تعامله مع السكان، ويبتكر أساليب ووسائل لإلحاق الأذى والرعب في نفوسهم، لغرض الابتزاز ونهب الأموال والوصول إلى رتبة أعلى عند مرؤسيه على حساب راحة المواطنين، وبين آونة وأخرى يقوم بحملات تفتيشية على القرى ويعتقل عدداً من رجالها بدعوى أنهم لصوص، ويقوم أحياناً بحرق بيوت القرى ويشتت سكانها، يذكر شاهد عيان من الرحالة الأجانب أن عثمان هذا قام بحملة مباغتة على قرية (حاتم) ، ولكنه لم يعثر على رجل واحد منهم لأنهم اختفوا في غابات القصب والبردي المجاورة لقريتهم، وعثر على زورقين مشحونين بالنساء، ورغم التهديد والوعيد والضرب وحرق بيوت القرية، لم يستطع أن يعرف من النساء شيئاً عن مكان الرجال سوى أنهم هربوا ومعهم كل ما يملكون، أمّا إلى أين ذهبوا فقد أنكرن بإصرار علمهن بذلك، وقلن انهن لا يعرفن شيئاً عن وجهة رجالهن، وتحملن تلك المشقة بصبر جميل[٢٥].

٤- استيقظت قرية (الصحين) النائمة ذات ليلة على صراخ امرأة وهي تقول الحرامي الحرامي ثم انقطع الصوت فجأة، فجرى رجال القرية إلى

(٢٣) أداموف، الكسندر، ولاية البصرة ، ترجمة : هاشم صالح التكريتي، ط٢، بيروت، ٢٠٠٩.

(٢٤) تبسيغر، ولفريد، عرب الهور، ص٢٧٠، ترجمة: د. جميل سعيد، ابراهيم شريف، ط١، بغداد، ٢٠٠٨.

(٢٥) المرجع نفسه، ص٢٧٥.

الكـوخ الذي خـرج منه الـصراخ فوجدوا صاحب البيت (مرهون) مقتولاً وزوجته إلى جانبه تحتضر وتغطّي ظهرها وملابسها الدماء التي نزفت بفعل طعنـات خنجر اللص الذي هجم على زوجها، ومن الواضح أنها ألقت بنفسـها عـلى زوجها لحمايته، فكان ما كان، ولم يمنعها الخوف على نفسـها من التضحيـة البالغة عن زوجها والجود بالنفس أعلى غاية الجود [٢٦].

٥-تشهد شـواطئ الأهوار في مطلع فصل الصيف حملات مكثفة من قبل الرجال والنسـاء الفلاحين لزراعـة الأرز بطريقة (الشـتال)، التـي يمكن أن تعطي مـردوداً انتاجياً مضاعفـاً، فيكون الرجال منهمكـين في زراعـة الأرز النابت حديثـاً وأرجلهم مغروسـة في الأرض الطينيـة إلى الركب، والنسـاء ذاهبـات وايبـات حامـلات سـلال شـتلات الأرز يسـلمنها إلى الرجـال، الذيـن يتولـون زراعتهـا واحـدة واحـدة في تلـك الأرض الغنيـة بالغريـن والسماد الطبيعي، والنسـاء يغنين ويمرحن وهن في طريقهـن إلى مهمة زراعـة الأرز بروح تعاونية مرحة لتوفير متطلبـات العيش الحلال والخلاص من العوز وذل الفقر [٢٧].

الخاتمة :

لمسـنا من المصـادر التي تناولـت تاريخ العراق بـكل صـوره وأحداثـه في تلـك الحقب، مسـتوى الترابط والتشـابك بـين الرجال والنسـاء في كافة جوانب حياتهم، ورأينا أن الهمم العالية والابداعات المتميزة ليسـت حكراً على الرجال، بل كان للنساء أدوار توازي أدوار الرجال أو تزيد عليهم في بعض المواقف، وكانت المرأة مبعث إلهام واندفاع وحماس نحـو كثير مـن الانجـازات العسـكرية والدفاعية وتخليـص البـلاد مـن الاحتـلالات والتجـاوزات، والخروج على الظلم واسـتعباد الإنسـان للإنسان، فكانـت المـرأة تسـير جنبـاً إلى جنب مـع الرجل لتحقيـق الأمانـي الوطنية في التخلـص من النفوذ الأجنبي، إلى جانب وقوفها بشـدة من أجل تحقيق العدل والمسـاواة بين أبناء البلاد أنفسهم، والعمل على نـشر القيـم الإنسـانية والسـلوك الحضاري وإعـداد الإنسـان علميـاً وثقافياً وعمليـاً لمواجهة متطلبات الحياة والسـير بالإنسـان نحو الأفضل، والتخفيـف من أثـر منغصات الحيـاة التي كثرت وازدحمت في ذلك العهد، وتنافست في سبيل إلحاق الضرر بالإنسان وتغليب سلوك شريعة الغاب على مسيرته، بدلاً من السماح والاتزان ومراعاة مقتضى الحال في الحياة اليومية.

وكانـت المـرأة في كثير من الأحيـان ضحية تلك الممارسـات الخاطئة والإجرامية التي تحصل بين الحين والآخر داخل المجتمـع، فتتحول إلى بضاعة تباع وتشـترى أو وسـيلة لتلافي الأخطار والأعذار بغـض النظر عن رأيها ورغماً عن إرادتها، فتكون أسـيرة لدى الفرقاء المتنازعـين أو جزءً من نصاب دفـع دية القتيل أو ما يعرف (بالفصل) أو ضحية علاقـة عاطفية شريفة لا تقرها التقاليد البالية، أو تحميلهـا بعض المهام في الحيـاة اليومية في البيت والمزرعة والمرعى تزيد عـلى تحملها وطاقتها أو لا تنسجم مع ترتيبها البدني، ومع ذلك فهي صابرة ومثابرة ومحتسـبة على وحدة مجتمعها، وقد عبر أحد السـياح الذين تجوّلوا في ربـوع العراق آنذاك

---

(٢٦) هدجوك، مستر، عرب الأهوار ، مصدر سابق، ص١٤٠.

(٢٧) المصدر نفسه .

عــن جهاد المرأة في تلك العصــور فقال إنها «قصة نفوس ذهبت طواعية في ســبيل هدف ســام عدت حمايته مســألة تتعلق بالــشرف، أيكون هذا دليلاً على أن شــعب هذه البلاد ســيكون في يــوم ما أمة عظيمة» أم هل هذا هو النفس الأخير لشعب مجيد قــد تدهور[٢٨]، ونحــن نقول إنها قصــة تعبر عن جهاد شــعب عشق الطموح يسابق الزمن من أجل النهوض.

المصادر والمراجع :

- تاريــخ العراق بين الاحتلالــين، عباس العزاوي، ج٤، ط بغداد، ١٩٥٦م.
- تاريخ العمارة وعشــائرها، عبد الكريم النداوي، ط بغداد، ١٩٦١.
- تاريــخ المشعشــعين وتراجــم أعلامهم، جاســم حسن شبر، ط النجف، ١٩٦٥.
- التحفــة النبهانيــة في تاريــخ الجزيــرة العربية (البصرة) محمد بن خليفــة النبهاني، ط القاهرة، ١٩٨٠.
- دليل الخليج (القسم التاريخي)، ج. ج. لوريمر، ط قطر، ١٩٦٩.
- دليل الخليج (القســم الجغرافي)، ج. ج. لوريمر، ط قطر، ١٩٦٩.
- الرحلــة المكيــة، علي بــن عبد اللــه الحويزي، ط بغداد، ٢٠٢٠.
- زاد المســافر ولهفة المقيــم والحاضر، فتح الدين علوان الكعبي، ط بغداد، ١٩٢٤.
- الســيرة المرضية في شرح الفرضية، عبد العلي بن ناصر بن رحمة الحويزي، ط بغداد، ٢٠٢٠.
- العرب والعراق، علي الشرقي، ط بغداد، ١٩٦٣.
- عرب الأهوار، مستر هدجكوك، ترجمة: د. جميل سعيد، د. إبراهيم شوكت، ط بغداد، ١٩٦٦.
- عرب الهور- ولفريد تيســغير، ترجمة د. سلمان عبد الواحد كيوش، ط بغداد، ٢٠٠٨.
- المكاسب، الشــيخ مرتضى الأنصاري، ط بيروت، ج١.
- مؤســس الدولة المشعشعية ، جاسم حسن شبر، ط النجف، ١٩٧٣.
- ولايــة البصرة في ماضيها وحاضرها، الكســندر أداموف، ترجمة: د. هاشــم صالــح التكريتي، ط بيروت، ٢٠٠٩.

(٢٨) المصدر نفسه ، ص٢٠٢.